

## (٥٨)

**باب قول الله تعالى: ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]**

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَّا مَضَاجِعَهُمْ وَلَيْتَبَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَجِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّ عَلَىٰهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّرَ هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل<sup>(١)</sup>، وفُسِّرَ بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، وفُسِّرَ بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعد الصادق. فمن ظن أنه يُبدل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشية مجردة. فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

أكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلُمُ من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليفتنَّ اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإنني لا إخالك<sup>(٢)</sup> ناجيا  
 لن: قوله: باب قول الله تعالى: ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ [آل عمران: ١٥٤] الآية.

(١) اضمحل الشيء: أي ذهب. لسان العرب (١١/٣٩٠).

(٢) أي: ما أظنك. النهاية (٢/٩٣).

هذه الآية ذكرها الله في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ أَمَنَةٌ نَاصِيًا تَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ [ال عمران: ١٥٤] يعني أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [ال عمران: ١٥٤] يعني لا يغشاهم النعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَطْلُوتُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنًّا لِلْجَاهِلِيَّةِ﴾ [ال عمران: ١٥٤] كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّرَ ذَلِكُ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله. وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

عن ابن جريج قال: قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمور من شيء؟.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أحد: وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه. ففسر بإنكار الحكمة. وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسول الله ﷺ وأن يظهره على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُتَنَفِّينَ وَالْمُتَفَقِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالظَّالِمِينَ وَالظَّالِمَاتِ وَاللَّهُ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية - وهو المنسوب إلى أهل الجهل - وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنی وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرد بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعد الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصرهم ولا يخذلهم. ولجندته بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حربه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يدبيل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً: فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده

وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يذل حربه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به.

فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله. وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره. فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته. وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها. وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها، لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلاً: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن سوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده.

فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن سوء. ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه: فقد ظن به ظن سوء. ومن ظن أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن سوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للشواب والعقاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين لخلق حقيقته ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن سوء.

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عبادهم، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم في أسفل سافلين، وينعم من استنفذ عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع

الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغز لم يصرح به وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألفاظ والأحاجي<sup>(١)</sup> أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أراد منهم ألا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان. فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه: فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد: فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله. وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتهوكين<sup>(٢)</sup> والحيارى هو الهدى والحق فهذا أسوأ الظن بالله.

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية. ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدره على الفعل ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد

(١) جمع أحجية: وهي لغز يتبارى الناس في حله. انظر المعجم الوجيز ص (١٣٧).

(٢) أي متحIRON. مختار الصحاح ص (٢٩٢).

ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدًا، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر ولا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه، بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغَّب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأنه من قال: سبحان ربي الأسفل كان كمن قال: سبحان ربي الأعلى . فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد . وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفه عين، واستنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يُنال بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئًا من أجله لم يعوضه خيرًا منه، أو من فعل شيئًا لأجله لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا

بمجرد المشيئة ومحض الإرادة فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله ، فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ما هو أهله .

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك في دعائه ، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده ، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله ، ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه ثم اتخذ من دونه أولياء ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه ، فقد ظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق وظن السوء ، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما شاء الله وأعطاه . ولسان حاله يقول : ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ونفسي تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر <sup>(١)</sup> على التصريح به .

ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأي ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد <sup>(٢)</sup> ، فاقده زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً وتعتباً <sup>(٣)</sup> على القدر وملامة له واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا . فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم ؟

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإنني لا إخالك <sup>(٤)</sup> ناجياً فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء ، وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم . فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين ، الغني الحميد ، الذي له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن (١) يتجاسر : أي يقدم .

(٢) الزناد : العود الذي تقدح به النار . مختار الصحاح ص (١١٦) .

(٣) ويقول ابن القيم أيضاً في خلال حديثه عن أنواع الاعتراض : « النوع الرابع : الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره . وهذا اعتراض الجهال . وهو ما بين جلي وخفي ، وهو أنواع لا تحصى . وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم ، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لرأى ذلك في قلبه عياناً . فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله إلا نفساً قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها فتلك حظها التسليم والانقياد والرضى كل الرضا انظر مدارج السالكين (٥٢/٢) .

(٤) أي : لا أظنك .

كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسمائه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل ولا تظنن بنفسك قط خيراً فكيف بظالم جان جهول وقل يا نفس مأوى كل سوء أترجو الخير من ميت بخيل؟! وظن بنفسك السوآى تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل وما بك من تُقَي فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل وليس لها ولا منها ولكن من الرحمن فاشكر للدليل

قوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السُّوءُ﴾ [الفتح: ٦] قال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السُّوءُ﴾ [الفتح: ٦] الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به. وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع.

يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن: دائرة السوء. يعني: دائرة العذاب تدور عليهم به.

واختلف القراء في قراءة ذلك: فقرأته عامة قراء الكوفة: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بفتح السين. وقرأ بعض قراء البصرة: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين. وكان الفراء يقول: الفتح أفشى في السين. وقل ما تقول العرب: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين.

قوله: ﴿وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ونالهم الله بغضب منه. ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ يقول: وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول: وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ يقول: وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات.

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السُّوءُ﴾ [الفتح: ٦] أي: يتهمون الله في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية. ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ وذكر في معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير رحمه الله تعالى.

قوله: (قال ابن القيم رحمه الله تعالى) الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجها في كلامه الذي سقته من أوله إلى آخره.